المهاجر بروحه

لم يكن الشابى يعرف لغة أجنبية ، ولم يكن متلائمًا بالروح أو بالعقل مع الثقافة العربية القديمة المسيطرة على بيئته فى تونس ، ولذلك بدأ يبحث عن مكان (يهاجر) إليه بروحه ...

مكان يتلاءم معه ويجد فيه عالمًا يشبه عالمه ويعبر عن أحاسيسه الجديدة وأفكاره الجديدة ، وقد بدأ الشابى يهتم اهتمامًا واسعًا بالأدب المترجم ، وأخذ يقرأ المترجمات عن الأدب الفرنسى ، منذ صباه الأول أى قبل أن يبلغ الخامسة عشرة من عمره .

واكتشف الشابى أيضًا أدب المهجر ، وأدب جبران خليل جبران بوجه خاص ، وقد لقى الشابى فى أدب المهجر لونا من الأدب ، خاليًا من العيوب التى أحسها فى الأدب العربى القديم ، بل والتى أحسها ومازال يحسها كل دعاة التجديد فى أدبنا المعاصر ، فالشعر المهجرى عند شعرائه اللامعين يخلو من الاهتمام بالموضوعات السطحية مثل المدح والهجاء وتوديع مسافر واستقبال قادم ، ويخلو هذا الشعر أيضًا من النزعة الخطابية وتحل فيه روح وديعة إنسانية هامسة ، كما أن شعر المهجر يحمل محاولات عميقة للتعبير عن أفكار فلسفية شاملة ، وذلك كان مطلبًا هامًا من مطالب الشابى ... أن يجمع الشعر بين الفن والفلسفة ، ألا يقف الشعر عند الحدود السهلة البسيطة بل ينطلق إلى آفاق إنسانية عالية ... وكان الشعر المهجرى عند أبى ماضى

ونسيب عريضة وجبران وميخائيل نعيمة نوعًا من الفلسفة الإنسانية والتأملات العميقة فى النفس وفى الطبيعة وفى الحياة عمومًا .

وهذه العناصر الفنية والفكرية فى شعر المهجر جعلت هـذا الـشعر هـو المدرسة الأساسية التى تربى فيها وعى الشابى الفنى .

ولكن أهم شخصية كان لها تأثيرها على الشابى من أدباء المهجـر هـى شخصية (جبران خليل جبران) . لقد أشعل جبران بكتابته أكثر من معـنى رئيسى فى عقل الشابى نفسه ، فقد كان جبران ثائرًا متمردًا على وضع المجتمع العربى ، وكان يكتب من بعيد كتابة حارة لينادى أبنـاء الـشرق العـربى ويطالبهم بالخروج من قيود التقاليد القديمة ، ومن استعباد أرواحهم للماضى ، وتجاوب الشابى مع هذه الدعوة الجبرانية تجاوبًا قويًا . فجبران كان يعبر عـن دعوته تعبيرًا أدبيًا ثائرًا مما كان له صداه الكبير عند الشابى الذى كان يـشبه أرضًا متعطشة إلى الثورة والتغيير الاجتماعى والإنسانى الشامل .

كان جبران يقول :

(بلية الأبناء إنما تأتيهم من ميراث الآباء ، ومن لا يحرر نفسه من عطايـا آبائه وأجداده يظل عبدًا للأموات حتى يصير من الأموات .

(والشرقيون يعيشون فى مسارح الماضى ، ويميلون إلى الأمـور الـسلبية المفكهة ، ويكرهون المبادئ والتعاليم الإيجابية التى تلـسعهم وتنبـههم مـن رقادهم العميق المغمور بالأحكام الهادئة ، إنما الشرق مريض تناوبته العلـل ، وتداولته الأوبئة حتى تعود السقم ، وألف الألم ، وأصبح ينظر إلى أوصـابه وأوجاعه كصفات طبيعية بل كخلال حسنة ترافق الأرواح النبيلة والأجساد الصحيحة ، فمن كان خاليًا منها عد ناقصًا محرومًا من المواهب والكمـالات العلوية) .

تلك هى كلمات جبران وأفكاره ... ومثل هذه الأفكار الثائرة على وضع العقل العربى والروح العربية فى بداية هذا القرن كانت هى نفسها الأفكار التى يعيشها الشابى ويحس بها ، فلم يكن غريبًا أن يهاجر الشابى بروحه إلى أدب جبران وعالم جبران ، ففيه يجد نفسه على حقيقتها بينما لا يجدها فى عالمه الواقعى ... فى مجتمع تونس فى ذلك الوقت ..

ومما يكشف لنا مدى تأثر الشابى بجبران ما كتبه الشابى فى رثاء جبران سنة ١٩٣١ ، وسوف ننقل هنا نص مقال الشابى لأهميته فى الدلالة على التأثير الكبير الذى تركه جبران فى شخصية الشابى . يقول الشابى :

(مات جبران ولكن روحه لن تموت

مات جبران وأصبح سرًا صامتًا فى ضمير الموت وخيالاً ساريًا فى مجاهل الأبد الغامض الرهيب .

أجل مات جبران واختفى عن هذا العالم إلى الأبد وأصبح بعيدًا بعيدًا عن أبناء هذا الوجود .

مات جبران ، مات ذلك الذى جلبته الحياة من طين وماء وكبلته بأصفاد الزمان والمكان واتخذت منه قصبة جوفاء تتغنى بها حينا ثم تلقيها عيدانا محطمة فى أودية الموت، أما ذلك الذى صاغه الإله من جوهر الحياة ، أما تلك الجذوة الإلهية المتأججة فى قلب جبران ، أما روح جبران الغريبة الهائمة الواقعة فى مفترق سبل الحياة حائرة متشككة متسائلة مفكرة ، شادية حالمة . أما عبقرية ، جبران أما فن جبران فكل هاتة حية خالدة ، لا ولن تموت ، بل إنها ستظل مصدر وحى ومهبط إلهام وستظل مقدسة جليلة إلى أبد الدهر .

كان جبران روحًا شعرية حالمة ، وأنشودة سماوية هائمة وبخورًا سحريًا يتضوع فى هيكل هذا الوجود ، وبلبلاً إلهيًا غريبًا غنى للبشرية المحزونة أغانى

الحب والجمال وعلمها محبة الحق وأراها بهاء السماء .

ترنم جبران بأصوات قلبه وتنهدات روحه فى عهود الشباب الجميلة المخضبة بالدموع والأحلام فكانت أناشيده رقيقة ناعمة كأغانى الملائكة ، وكانت داوية كأصوات البحار وكانت شجية ساحرة كأنات نای بعيد .

وتألم جبران فكانت آلامه لهيبًا شعريًا يرفرف حول أرواح البشر بأجنحة من نور وكانت زوابع من نار تتأجج فتلتهم الأنصاب والهشيم .

وفكر جبران فكانت أفكاره عميقة كالموت جميلة كالحياة . فكر كالفيلسوف وتكلم كالشاعر فكان لأدبه رقة الشعر وجلال الفلسفة وكان له فن غريب تتعانق فى ظله الحقيقة السافرة والخيال الجموح .

وكان جبران ثورة فى الأدب العربى ولكنها ثورة حبيبة ، جانب البناء فيها أكثر من جانب الهدم والتخريب ، ثورة أيقظت الناس من سبات الدهور وأرتهم آفاقا كانت مجهولة ، وأسمعتهم هزيم الحياة وعلمتهم أن روح الشاعر كتر لا يفنى وثورة لا تبيد وأن فى هذا العالم شيئًا آخر غير الأمس البعيد .

ويمتاز أدب جبران فى رأيى بميزتين هما فى نظرى دعامتا مجده الذى لا يزول : الميزة الأولى : الجدة والطرافة فى أسلوبه وفى معانيه وفى روحه ، فإنك لتقرأ أدبه فإذا أسلوب موسيقى متجاوب النبرات ومعان خيالية رائعة وروح متأرجحة ترفرف بين السطور .

الميزة الثانية: الحياة التى لابد أن تحرك فى صدرك حين تقرأه عاطفة أو فكرًا أو خيالاً بل إنها تكرهك على أن تفكر أو تشعر أو تتخيل ، ومن لا يحركه أدب جبران ولا يثير شعوره فإنما هو روح مقفرة وقلب مهروم .

وسيقول الناس عن ثورة جبران على قواعد اللغة العربية أحيانًا . ولكن ذلك لا يحط من قيمة جبران فما هى إلا هفوة تغفرها له تلك الثورة المعنوية

الخالدة التى خلقها جبران للعربية وستمر الدهور وتتعاقب الأجيال وينسى الناس عن جبران كل شىء ولكن لا يستطيعون أن ينسوا هاته الحقيقة : لقد كان جبران عاطفة مشبوبة وخيالاً جامحًا وفكرًا قويًا يجوب أعماق الحياة . وسيقول الصديق لصديقه وهو يحادثه فى الليلة القمراء تحت ظلال النخيل أو على شاطئ اللجة الداوية :

(حقًا لقد كان جبران رسول الحق والحب والجمال) .

هذا هو ما كتبه الشابى فى رثاء جبران وقد نشرته له جريدة (الزمان) التونسية فى ٨ يوليو سنة ١٩٣١ ثم أعادت جريدة العمل التونسية نشر هذا الرثاء فى ٦ ديسمبر سنة ١٩٧٤كنص مجهول من كتابات الشابى .

والذى يمكننا أن نخرج به من هذا الرثاء هو أن الصلة كانت عميقة بين الشابى وأدب جبران . لقد وجد الشابى فى جبران تجسدًا للثورة الأدبية والفكرية التى كان يحلم بها الشابى ... فجبران ثائر على الأدب التقليدى وثائر على المجتمع العربى التقليدى ، وهو يحاول فى أدبه أن يهز الإنسان العربى ليستيقظ من النوم الحضارى العميق الذى كان يعيش فيه ويعانيه فى أوائل القرن العشرين . وقد استمع الشابى إلى صوت ، ووجد فى هذا الصوت (نغمة) متميزة كان يبحث عنها فى عالمه المتأخر المتخلف الذى تحولت فيه سائر النغمات إلى أصوات تقليدية لا تثير فيه عاطفة ولا تحرك فكرة . ومن هنا ارتبط الشابى بجبران وتأثر به وأخذ عنه ووجد فيه نموذجًا (للبطل) الجديد الذى يحلم به .

ومن الممكن أن تتابع الأفكار المتعددة التى نادى بها جبران وكان لها تأثير قوى على أفكار الشابى مثل رأيه المتحرر السامى فى المرأة ، ورأيه المتحرر فى الدين وهو الرأى الذى يقف ضد الكهانة ويعتبرها كما يقول جبران –

(الحرفة الأولى التى ابتدعها الإنسان بدون حاجة حيوية أو داع لها) ومن الممكن أن نتابع أيضًا تعبير جبران عن إحساسه بالغربة بين قومه وعدم فهمهم لأفكاره ، ووحدته الروحية كداعية ثائر مجدد بين شعب مستريح للأفكار القديمة مستكين لها . يمكننا أن نتتبع كل هذه الأفكار التى تجاوبت أصداؤها بقوة فى شعر الشابى وأفكاره وشخصيته ، ولكن الأفضل أن نقف عند النقطة الرئيسية وهى أن جبران والشابى كانا علامة من علامات الثورة الرومانسية فى الوطن العربى ، بل كان من أبرز طلائع هذه الثورة والمعبرين عنها والذين دفعوا ثمنها بشجاعة الأبطال الذين يدخلون معركة يؤمنون بها كل الإيمان(1) .

والثورة الرومانسية فى الحقيقة كانت حركة شاملة عميقة فى أدبنا وحياتنا معًا ، فهذه الثورة هى أول دعوة حقيقية لكى يعود الأديب إلى نفسه بدلاً من أن يظل دائمًا خارج نفسه : يمدح ويهجو وينظم الأحداث الجميلة والقبيحة معًا ، وهذا الموقف الفنى القديم كان يجعل الشاعر دائمًا تابعًا لغيره ... لوجيه غنى ، أو لقصر من القصور، أو لحاكم من الحكام ، ولكن الموقف الفنى الجديد الذى طالبت به الرومانسية هو استقلال الفنان وحريته وصدق صلته بالحياة .

ولم يكن هذا المعنى الثورى للرومانسية هو معناها فى الأدب العربى والوطن العربى فقط ، بل هو معناها أيضًا فى الأدب الأوروبى والحياة الأوروبية ، فقد كان الرومانسيون الأوروبيون ثائرين ضد الأرستقراطية والأنظمة الفاسدة ، كانوا من دعاة الحرية والأنظمة الجمهورية ، هكذا كان بيرون ، وكذلك كان أبو الرومانسية الأوروبية : جان جاك روسو . أما

(١) هناك لحسن الحظ دراسة طويلة ممتازة عن العلاقة بين الشابى وجبران ، كتبها الأديب العربى الليبى محمد خليفة التليسى وهى دراسة تعالج بالتفصيل كل التأثيرات الجبرانية فى شعر الشابى وآرائه .

شيلى الشاعر الإنجليزى الرومانسى الكبير فكان يقول : (إننى أحمل فى جوانحى شهوة لإصلاح العالم) . وكان يقول أيضًا : (الشعراء هم المرايا التى تعكس الظلال الماردة التى يلقيها المستقبل على الحاضر . هم الأبواق التى تدعو إلى المعركة ، هم القوة التى تحرك الأشياء ولا يحركها شىء ، الشعراء هم شراع العالم الذين لم يعترف بهم إنسان) . ولقد أعلن شيلى الحرب على ثالوث الظلم فى نظره والذى يتكوّن من : الملوك والطغاة والقساوسة .

وهكذا تحس أن الشاعر فى المدرسة الرومانسية هو مصلح وثورى وداعية تغيير للمجتمع . والشاعر الرومانسى يميل دائمًا إلى الأفكار المثالية ، إلى التطرف والمبالغة فى الإحساس ، والبحث عن مثل أعلى رفيع للجمال والقوة والخير .

وهذه الصورة المثالية للعالم وللمشاعر الإنسانية ، وهذه المبالغة والتطرف أدت إلى نتائج عملية كثيرة خطيرة بالنسبة للمدرسة الرومانسية ، حتى فى أشخاص شعراء هذه المدرسة وحياتهم الخاصة ، فقد انتحر الشاعر الرومانسى الإنجليزى (تشاترتون) احتجاجًا على قبح الحياة الإنجليزية وعدم تذوقها للجمال كما قال الشاعر المنتحر نفسه ، وانطلق بيرون للأشتراك فى حرب تحرير اليونان من الأتراك وظل فى المعركة حتى مات بالحمى سنة ١٨٢٤ ، أما شيلى فقد ظل يغنى وينشد للحرية حتى مات غريقًا سنة ١٨٢٢ ،وقبل هؤلاء جميعًا كان جان جاك روسو فى فرنسا ينادى بتغيير المجتمع الإنسانى حتى يصبح أكثر عدلاً ونظامًا ، وكانت كتابات هذا الرومانسى الذى ينادى بجمال الطبيعة وجمال الفطرة الإنسانية ... كانت كتابات روسو تثير الحكومة والكنيسة والطبقات الأرستقراطية ، وكان يضطر إلى التنقل من بلد إلى بلد ، بل ويضطر إلى التنكر تحت أسماء مستعارة حتى يتجنب مطاردة الحكام ورجال الكنيسة وأفراد الطبقة الأرستقراطية التى تخشى

منه على نفوذها .

تلك هى صورة من المواقف العملية التى أدت إليها الثورة الرومانسية فى الغرب و لم تختلف الثورة الرومانسية العربية فى طبيعتها عن الرومانسية الغربية ، فكانت الرومانسية العربية أيضًا تحلم بتحقيق صورة مثالية كاملة للمجتمع ، وتحلم بتحقيق صورة مليئة بالحيوية والصدق للإنسان العربى بدلاً من صورته الخاملة المليئة بالكسل الروحى والمادى .

كانت الرومانسية فى بلادنا وفى الغرب مبالغة وطموحًا إلى الحياة المثالية ولكنها كانت كما قال عنها (جوركى) :

(أكثر المواقف التى عرفها البشر إنسانية ، إنها تغالى ... طبعًا ، ولكنها تغالى دائمًا فى جانب الخير ، لتثبت كم هو عظيم ذلك الظمأ الدائم الذى يعانيه الناس لهذا الخير) .

وقد شملت الحركة الرومانسية عندنا كثيرًا من المجالات الرئيسية ، ففى المجال الوطنى شهدت بداية القرن العشرين فى مصر زعيمًا رومانسيًا من الطراز الأول ، كان كل همه أن يوقظ العاطفة الوطنية ؛ ويشعل الإحساس بحب الوطن فى النفوس ، وكان يتحدث عن الوطن حديث المحب العاشق أكثر منه حديث الزعيم المصلح ، ذلك هو مصطفى كامل ، ولو قرأنا خطب مصطفى كامل لوجدناها نوعًا من العاطفة الرومانسية ، التى تهتم بمثال خيالى جميل للوطن ...

كان يقول على سبيل المثال :

(بلادى . بلادى . لك حبى وفؤادى . لك حياتى ووجودى . لك دمى ونفسى . لك عقلى ولسانى لك لبى وجنانى . فأنت أنت الحياة) (ألا أيها اللائمون ... انظروها وتأملوها وطوفوها ، وأقراوا صحف ماضيها ، واسألوا

الزائرين لها من أطراف الأرض ، هل خلق الله وطنًا أعلى مقدمًا وأسمى شأنًا وأجمل طبيعة وأجل آثارًا وأغنى تربة وأصفى سماه وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز) ؟.

تلك هى كلمات مصطفى كامل ، وهى كلمات عاشق رومانسى يتخيل الوطن حبيبة جميلة ، وينظر إليه نظرة عاطفية سامية رقيقة مندفعة .

ذلك مثال من ميدان السياسة وهو الميدان الذى تأثر وتشبع بروح الثـــورة الرومانسية فى الوطن العربى ، وهناك نماذج عملية عديدة أخرى مثل الشهيد عمر المختار فى ليبيا ، والشهيد يوسف العظمة فى سوريا ، وهما رجلان كانا يحاربان حربًا عنيفة بقوى ضعيفة إلى أبعد حد ، ولكنهما كانا بطلين يعشقان حتى الموت كل ما له صله بالوطن وتراب الوطن .

وبالطبع كانت هذه الروح الثورية الرومانسية متغلغلة فى الميدان الاجتماعى أيضًا فظهرت دعوة تحرير المرأة فى مصر ، وتجاوبت أصداؤها فى تونس ، وفى شتى أنحاء الوطن العربى .

وكان الأدب فى مقدمة أشكال التعبير عن روح العصر الرومانسى ، وكان الشابى قد شرب هذه الروح وتأثر بها ثم عبر عنها ومثلها خـــير تمثيـــل ، وفى هذا الميدان التقى بجبران الذى كان رائدًا من رواد المدرســـة الرومانـــسية ، والذى كان يدعو بحماس إلى أهم مبادئ هذه المدرسة : استقلال الفنان عـــن التبعية لغير نفسه ومشاعره ، وخاصة تلك التبعية للطبقـــات الأرســـتقراطية والحاكمة ، وتحرير المرأة من الجمود والدعوة إلى احترامهـــا وخروجهـــا إلى ميدان الحياة وتفاعلها مع الرجل فى هذا الميدان ، والنظر إليها أيضًا على أنهـــا شعور وعقل ، لا على أنها جسد ووعاء للذة الحسية وحسب ، والدعوة إلى الاهتمام بالطبيعة والفطرة الإنسانية ، ففى الطبيعة تهذيب للحواس وتـــدريب للذوق وفيها تعميق لإدراك الإنسان لهذا العالم .

هنا التقى الشابى بجبران ، ووجد فيه رفيقًا صادقًا لروحه ومشاعره ، واستطاع الشابى بقوة مواهبه أن يتفوق ـــ شعريًا ـــ فى التعبير عن هذه الآراء والأفكار .

هنا جماعة أخرى هاجر إليها الشابى بروحه ، بعد إحساسه بالغربة فى وطنه ، تلك الجماعة هى (جماعة أبوللو) التى أنشأها فى مصر الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، وقد ضمت هذه الجماعة معظم الشعراء الشبان البارزين فى تلك الفترة مثل علىّ محمود طه وناجى ، وكان هؤلاء الشبان جميعًا من الشعراء الرومانسيين المجددين .

وقد رحبت جماعة (أبوللو) ومجلتها بالشابى ترحيبًا كبيرًا ، وفى الوقت الذى كانت صحف تونس ترفض فيه نشر قصائد الشابى ، أو تنشرها فى زوايا مهملة منها ، تلقى أبو شادى رائد (جمعية أبوللو) شعر الشابى بالترحيب العميق ، ونشر قصائده فى أبرز صفحات مجلة (أبو للو) ونشأت على البعد بين أبى شادى فى مصر والشابى فى تونس صداقة خصبة ، ومن خلال مجلة (أبو للو) أطل الشابى على جماهير القراء فى الوطن العربى ، وكانت هذه هى الفرصة الأولى التى أتيحت للشابى ، حتى ينشر شعره على نطاق واسع .

ولم يكن ترحيب (أبوللو) بالشابى مصادفة ، بل كان (التقاءً فنيًا وفكريًا) عميقًا ، فقد قامت جماعة (أبوللو) لتنادى بنفس الأهداف والمبادئ التى كان الشابى يؤمن بها ويحلم بتحقيقها ، فقد جعلت الجمعية من بين مبادئها الأساسية (السمو بالشعر العربى وتوجيه جهود الشعراء توجيهًا شريفًا ، ومناصرة النهضات الفنية فى عالم الشعر) .

لقد التقى الشابى بجماعة تفكر بنفس الطريقة التى يفكر بها ... وكان هذا اللقاء مساندة لروح الشابى وفرصة له حتى يبدع أجمل أغانيه .